

العلامة الجزائري عيسى بن مسعود الزواوي (تـ743هـ/1342م)

(حياته، ونشاطه العلمي)

Algerian scholar Issa bin Masoud al-Zawawi (d. 743 AH/1342 AD)
(His Life and Scientific Activity)



د. قعيد سفيان *

جامعة الوادي؛ (الجزائر).

مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

gaid-soufiane@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/02 تاريخ القبول 2025/05/12 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تبحث أوراق الدراسة في شخصية العلامة الجزائري عيسى بن مسعود الزواوي الفقيه المالكي وقاضي القضاة بمصر وبلاد الشام، الذي نشأ ببلاد زواوة ودرس بمحاضرة بجاية وارتحل لتحصيل العلم بين حواضر بلاد المشرق انطلاقاً من الإسكندرية ووصولاً لدمشق، ومثّل بذلك صورة من صور التواصل العلمي بين بلاد المغرب والمشرق من خلال رحلاته بين الأقطار وإسهاماته في التدريس وتوليّه القضاء، إضافة لإنتاجه العلمي فلقد شرح بعض الكتب والمصنفات المالكية وألّف في المناقب والمناسك والوثائق والتاريخ وله بعض الرسائل، اكتسب مكانة علمية كبيرة بين أقرانه من علماء المشرق والغرب الإسلامي وسطع نجمه نظير جهوده وإسهاماته في خدمة العلم وأهله، فأشاد به الكثير من العلماء ووصفوه بإمام زمانه في المذهب المالكي، لغزارة علمه وسعة اطلاعه وتفننه في مختلف العلوم.

الكلمات المفتاحية: عيسى الزواوي؛ الفقه؛ القضاء؛ المغرب الأوسط؛ المشرق.

Abstract:

This study deals with the figure of the Algerian scholar Issa bin Masoud al-Zawawi, a Maliki jurist and judge of judges in Egypt and the Levant, who grew up in Zawawa, studied in Bejaia, and traveled in

* المؤلف المراسل

seeking knowledge between the cities of Egypt and the Levant, thus representing a form of scientific communication between the countries of the West and the Islamic East through his travels between countries and his contributions in teaching and judging, in addition to his scientific production, He commented on some of the Maliki books and works and wrote on manaqibs, rituals, documents, history, and some letters, He gained a great scientific standing among his peers among the scholars of the East and the Islamic West, and his star shone for his efforts and contributions in the service of science and its people, so many scholars praised him and described him as the imam of his time in the Maliki school, due to his wealth of knowledge, breadth of knowledge, and his specialization in various sciences.

key words: Issa al-Zawawi; jurisprudence; judiciary; Middle Maghreb; Levant.

مقدمة:

عُرِفَتْ حاضرة بجاية خلال العصر الوسيط بنشاط الحركة الفكرية وكثرة البيوتات والأسر العلمية التي أنارت المعمورة ومن بين هذه البيوتات بيت آل الزواوي بمنطقة زاوة، الذين ساهموا بشكل كبير في إثراء العطاء المعرفي والثقافي برحلاتهم العديدة في أقطار العالم الإسلامي طلباً للعلم، وبجهودهم إما تدريساً وتخرجاً للطلبة والحفاظ أو تصنيفاً وتأليفاً في مختلف الميادين، ومن علماء بيت الزواوي تبرز شخصية عيسى بن مسعود الزواوي، هذه الشخصية المغمورة التي لم تحمل المصادر ولا كتب الطبقات والتراجم في طياتها إلا النزر اليسير حول ميلاده وتنقلاته بين حواضر بلاد المشرق وبعض مصنفاته وتاريخ ومكان وفاته، وهنا يأتي السؤال حول هاته الشخصية، فمن هو عيسى الزواوي؟ وكيف كانت نشأته العلمية؟ وما أبرز إسهاماته من خلال المناصب التي تقلدها؟

دوافع البحث: من بين الأسباب التي جعلتني أخوض غمار هذا الموضوع هي ندرة الدراسات الأكاديمية المتخصصة التي تناولت هذه الشخصية، وشح المعلومات المتوفرة في المصادر عن علماء بلاد المغرب الأوسط، وكذلك الرغبة في إبراز جهود علماء الجزائر خلال العصر الوسيط.

أهداف البحث: من جملة الأهداف في هذه الدراسة تقديم إضافة علمية في التاريخ الوطني خلال العصر الوسيط بإظهار جهود علماء الجزائر في خدمة العلم بمختلف ميادين، وإبراز مكانة العلامة عيسى بن مسعود الزواوي بين النخب العلمية والذي لم يكتب حوله الكثير، وكل ما كتب عنه مقتضب ومكرر في جل المصادر والمعاجم وكذلك لفت انتباه الدارسين إلى علماء منطقة زواوة وغيرها من مناطق بلاد المغرب الأوسط.

منهج البحث: اعتمدت في البحث على آليات المنهج التاريخي التي تركز على جمع المادة والدلائل المؤسسة للدراسة وفحصها وتمحيصها بالممارسة النقدية التاريخية عليها، ومن ثم بناء الموضوع، فالمسار الذي مر على هذه المحطات من شأنه أن يوصل البحث إلى معطيات دقيقة قريبة جدا من الحقيقة.

خطة البحث لمعالجة موضوع البحث رتبت عناصره على النحو التالي:

■ أولا: سبل التقارب بين بلاد المغرب والمشرق

■ ثانيا: حياته ومساره العلمي

■ ثالثا: إنتاجه العلمي

■ رابعا: مكانته بن النخب العلمية

■ خامسا: وفاته

ذكرت في مواضع عديدة في متن هذا المقال مفردة "الجزائر" عمدا والضابط لذلك أن الحدود السياسية الحالية لدولة الجزائرية تشمل منطقة زواوة الموطن الأصلي للشخصية المدروسة، وذلك اعتزازا به وافتخارا بإسهاماته العلمية وإثراء للتاريخ الوطني خلال الحقبة الوسيطة.

1. سبل التقارب بين بلاد المغرب والمشرق

أردت من دراسة التقارب والتواصل بين بلاد المغرب والمشرق تبين العوامل الأساسية التي جعلت علماء بلاد المغرب يقصدون في رحلاتهم بلاد المشرق خاصة مصر التي تعتبر

همزة الوصل بين القطرين، بل هي جغرافياً الحد الفاصل بينهما وفي بدايات الفتح كانت بلاد المغرب تابعة لسلطة الفسطاط بمصر؛ ابتدأت بهذا العنصر حتى تأخذ فكرة عن ملامح الأوضاع العامة السائدة في البلاد عصر الزواوي.

1.1. **العلاقات السياسية:** واكب عصر الزواوي الفترة ما بين المنتصف الثاني من القرن السابع (7) والأول من القرن الثامن (8) الهجريين 13-14 للميلاد أي الحقبة ما بعد سقوط دولة الموحدون في بلاد المغرب وتأسيس الدول المستقلة على أنقاضها (الحفصية، الزيانية، المرينية)، وفي المشرق الإسلامي تأسست دولة المماليك¹ على أعقاب الدولة الأيوبية وامتدت من مصر إلى بلاد الشام مروراً بالحجاز مع بقاء السلطة الشرفية للعباسيين قبل سقوطهم على يد المغول سنة 656هـ/1258م وبحكم أن بجاية ومنطقة زواوة² كانت تحت حكم سلطان الحفصيين فلا بد من فهم العلاقات السياسية بينها وبين دولة المماليك وهو أمر في غاية الأهمية لرسم صوره عن الفضاء الجغرافي الذي نشطت فيه الرحلة العلمية على غرار الأنشطة الأخرى كالدينية والتجارية وغيرها؛ وتتميز العلاقات بالودية التعاونية خاصة في بداية الحكم لكل من الدولتين إذ أن الحفصيين يروا في دولة المماليك الجارة المحاذية من الجهة الشرقية والتي تمثل القوة الكبرى ببلاد المشرق، ومن الضروري توثيق الصلات معها، وكذلك ينظر المماليك للدولة الحفصية باعتبارها قوة إسلامية في بلاد المغرب يحقق ربط العلاقات معها تأمين الجهة الغربية بما يحد من الخطر المشترك الذي يهدد العالم الإسلامي آنذاك والمتمثل في الصليبيين³.

في عهد أبو عبد الله محمد الأول الحفصي (المستنصر بالله 647-675هـ/1249-1277م) الذي لقب نفسه بالخليفة أمير المؤمنين توترت العلاقات وذلك بسبب مشكلة الخلافة التي تناها الحفصيين وتلقبوا بها والتي دعمها وشجع عليها شريف مكة أبو نمي بن الحسن، الذي بايع الحفصيين باعتبار نسبهم الذي يؤهلهم للبيعة على الخلافة آنذاك دون سواهم، وفي الجهة الأخرى أراد الظاهر بيبرس⁴ إحياء الخلافة العباسية في مصر

وذلك سنة 659هـ/1261م، مما أحدث ترهل في العلاقات بين الطرفين حيث شكك المماليك في دعوى نسب الحفصيين العربي القرشي وهو ما دفعهم لعدم الاعتراف بإمارة المؤمنين لهم، وإنما لقبوهم بإمارة المسلمين وهو لقب دون أمير المؤمنين في المرتبة⁵.

الجدير بالذكر أن مشكلة الخلافة لم يُنس كلاً الدولتين واجب النصرة في رد العدوان الخارجي، ففي عام (668هـ/1270م) أثناء استعداد الصليبيين لشن حملة على تونس، أرسل الظاهر بيبرس رسالاً إلى ملك فرنسا يحذر من مغبة الاعتداءات المتكررة. وعندما نفذت الحملة أرسل بيبرس رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره فيها بإنفاذ نجدة فورية لصد العدوان، لكن استطاع الحفصيين إفشال الحملة وهو ما حال دون إرسال نجدة الممالك⁶؛ وكانت هناك العديد من الإرساليات والاتفاقيات والهدايا المتبادلة بين الدولتين التي توثق وتمتّن العلاقات، يقول ابن خلدون في هذا الصدد "ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون ملوك الترك بمصر حقهم ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال"⁷ هذه العلاقات الإيجابية بين ملوك وأمراء الدولتين دفع للتعاون في باقي المجالات الأخرى كالإرساليات والرحلات العلمية وأداء مناسك الحج والتجارة.

2.1. التبادل التجاري: كان للتبادل التجاري دور هام في ربط أقطار العالم الإسلامي ببعضها البعض فميناء الإسكندرية مثلاً كان مركز رئيسياً لعبور السفن من بلاد المغرب والأندلس إلى باقي المناطق الشرقية ويتم فيه تبادل السلع والمنتجات القادمة إلى بلاد الغرب الإسلامي، فمنذ القرون الهجرية الأولى كان بحارة الأندلس يترددون على ميناء الإسكندرية لشراء ما يلزمهم من عتاد ومؤن وطعام، ويفهم من ذلك أن هذا التواصل لم يكن وليد اللحظة بل كان قديماً، فلقد كانت معظم السفن التجارية القادمة من المغرب تسير بمحاذاة الساحل الإفريقي وترسو بثغور تونس وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية ثم

تخرج إلى أنطاكية مروراً بسواحل مصر كدمياط وتينيس ثم تتجه إلى سواحل الشام⁸، وفي العهد الفاطمي كانت المنتجات الخزفية وورق البردي يؤتى بها من مصر إلى بلاد المغرب وكان ساحل الإسكندرية يمتد إلى القيروان من كثرة المبادلات التجارية، وبقي الأمر على هذا الحال فترات متعاقبة إلى غاية العهد المملوكي حيث زاد النشاط والتبادل التجاري مع بلاد المغرب فكانوا يستوردون الخيل والزيوت من بلدان الغرب الإسلامي ويصدّر إليهم الصوف والعسل والقطران والمنتوجات الحريرية والكتانية⁹، وجاء عند ابن خلدون أن تجارة المغاربة إلى المشرق ثروتم بعيدة لبعد الشقة وغلوا أسعار بضائعهم¹⁰ وذكر أنه في إحدى رحلاته إلى مصر سنة 763هـ/1362م استخدم في تنقله سفينة مصرية أتت إلى تونس قصد التجارة¹¹.

3.1. البعثات والرحلات بين القطرين: تعددت أغراض الرحلة بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامي ولعل من أبرزها كان لغرض ديني تمثل في أداء فريضة ومناسك الحج وزيارة البقاع المقدسة، وكان ركب الحج المغاربي أو ما يسمى بالرحلة الحجازية يمر بمصر على اعتبارها أرض واقعة على الطريق البري للحجاج القادمين من بلاد المغرب، ويمر بحرا بميناء الإسكندرية بوصفها إحدى طرق الحج الرئيسية ثم يتجمعون في القاهرة ومنها عبر البحر الأحمر إلى أرض الحجاز عبر جدة ومنها إلى مكة المكرمة ثم الذهاب للمدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي والروضة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولقد كان موسم الحج ملتقى للمسلمين وهو ما شكل فرصة للقاء بالمشاركة من العراق وبلاد الشام¹²؛ أما السبب الثاني فكان بغية تحصيل العلم وهو ما شجع عليه السلاطين والأمراء وعملوا على إنفاذه، خاصة بعد إحياء الخلافة العباسية في مصر على يد المماليك فكانت مركزا للنشاط العلمي والفكري وقبلة للمغاربة، ويرجع سبب كثرة توافد المغاربة على مصر أنها أقرب الحواضر العلمية إليهم وباعتبارها بوابتهم للمشرق، ضف لها ارتباط المغاربة بالمذهب المالكي حيث وفدوا لعلماء المذهب المصريين للأخذ عنهم، وكذلك

للعناية الفائقة التي خصصها أمراء مصر آنذاك واهتمامهم بالعلم وأهله ومرافقه، فلقد كان في مصر ثلاث وسبعون داراً للحديث وأضعافها من المدارس والرُّبُط والخوانق¹³، ويقول ابن خلدون عن مدينة القاهرة المملوكية: "ونرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملة تعليم العلم... فبنوا المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة... فكثر الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد، وكثرة طلاب العلم".¹⁴

شهدت حواضر بلاد المشرق فترة العهد المملوكي في ظل هذه العوامل توافد العلماء المغاربة إلى المراكز العلمية فيها ينهلون من المعين الصافي للعلوم، وكان جامع الأزهر بمصر والجامع الأموي بدمشق من أبرز المنارات العلمية التي قصدتها المغاربة لما فيها من مجالس ودروس على يد علماء فطاحل، ومن بين العلماء الذين وفدوا وسلكوا هذا الطريق هو صاحب دراستنا العلامة الجزائري عيسى بن مسعود الزواوي.

2. حياته ومساره العلمي

نتتبع في هذا المبحث مسار حياة العلامة عيسى بن مسعود الزواوي من ميلاده إلى غاية وفاته، ونتعرف على نشأته الشخصية والعلمية وترحاله لطلب العلم، وذلك من خلال ما وجدنا في النصوص التي حوتها مضامين كتب الطبقات والمعاجم المغاربة والمشرقية ونحاول مع اقتضاها أن نستشف منها ما يغني البحث.

2.1. النسب والمولد والتكوين: عيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى بن يونس المنكلاقي¹⁵ الزواوي المالكي المكّي بشرف الدين، أبو الروح¹⁶ والمنكلاقي نسبه إلى قبلية من قبائل زواوة التي سكنت بنواحي بجاية، وهو العالم بعلوم الحديث والفقيه، والقاضي والمؤرخ من أبرز فقهاء المذهب المالكي في القرن الثامن الهجري، كان مولده عام أربع وستين وستمائة للهجرة (664هـ/1265م) بمنطقة بني منقلات¹⁷ بزواوة، درس في

مسقط رأسه على يد الفقيه أبي محمد عبد الصمد الزواوي وحفظ عليه القرآن الكريم ومبادئ العلوم الأخرى، والذي نصحه بالانتقال للحاضرة البجائية لنباهته ونوغه في العلم، انتقل إلى بجاية وأخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب الزواوي وقرأ عليه الكثير من أمهات الكتب في المذهب المالكي ودرس عنده الفقه والأصول والحديث، وحفظ مختصر خليل وعرضه، ثم شد الرحال إلى مصر طالبا للعلم فنزل بالإسكندرية وتفقّه بها وأخذ من علمائها العلم الغزير وحفظ خلالها موطأ الإمام مالك، ثم دخل القاهرة العامرة سنة 700هـ/1301م ودرّس بجامع الأزهر وسمع على جماعة من العلماء منهم الإمام الحافظ شرف الدين الدميّاطي، في سنة 707هـ/1308م قصد بلاد الشام ونزل بدمشق أوائل شهر ربيع الآخر من نفس السنة وأخذ العلم عن إمامها وقاضي قضاها العلامة محمد بن سليمان بن سومر الزواوي المالكي ونابه في القضاء مدة -قيل سنتين- ودرّس في الجامع الأموي ثم عاد إلى الديار المصرية¹⁸؛ قصد بيت الله الحرام لأداء فريضة ومناسك الحج عام 732هـ/1332م؛ تفنن الزواوي في كثير من العلوم ووصف بأنه الأملعي الذكي الحافظ وكان يدعى بمالك الصغير من شدة حفظه وإتقانه، حفظ مختصر ابن حاجب وعرضه وأختلف في مدة حفظه فصاحب الدر الكامنة يقول أنه حفظه في ستة أشهر ونصف، أما صاحب الديباج فيقول أنه حفظه في ثلاثة أشهر ونصف، واستطاع كذلك حفظ موطأ الإمام مالك بن أنس وعرضه¹⁹.

2.2. شيوخه وطلابه

2.2.1. شيوخه: تعلم الفقيه القاضي عيسى بن مسعود الزواوي على يد ثلة من علماء الحاضرة البجائية وتونس، وعلماء مصر وبلاد الشام الذين صقلوا شخصيته وساهموا في تكوينه في علوم عدة حتى أصبح من كبار العلماء المتفنيين في صنوف العلم وذكر عدد منهم في كتب التراجم بأن علمنا أخذ أو سمع منهم، والبعض الآخر أشار إليهم عيسى الزواوي في مواضع عدة في مؤلفاته وشروحاته؛ نذكر منهم:

الفقيه أبو محمد عبد الصمد الزواوي: لم أقف له على ترجمة، ولقد ذكره الصفدي في كتابه أعيان العصر وأعيان النصر بأنه درس الفقيه عيسى الزواوي وذلك في قوله "تفقه بزواوة على أبي محمد عبد الصمد" ويبدو أنه عاش بين القرنين السابع والثامن الهجريين²⁰.

الشيخ الفقيه أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنجلاقي الزواوي البجائي: تنقل بين بجاية وإفريقية طلبا للعلم وتدريساً وكان مجلسه من المجالس المعتبرة، وكانت تقرأ عليه الكتب المذهبية، فكان يقوم عليها قياما حسنا، وكان نظره في التهذيب نظرا جيدا، توفي سنة 690هـ/1291م²¹؛ أشار إليه عيسى بن مسعود الزواوي في معرض حديثه عن المسائل المتشكلة في مصنفاته ومنها قوله: "فسمعتُ شيخنا أبا يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي يحكي في المسألة قولين"²².

شيخ المحدثين الإمام شرف الدين الدميّاطي: وهو عبد المؤمن بن خلف بن موسى الدميّاطي، ولد عام 613هـ/1216م، كان أحفظ الناس للحديث، توفي سنة 705هـ/1306م؛ أخذ عنه الزواوي العلم عند نزوله بالقاهرة وذلك سنة 700هـ/1301م وقيل سمع منه كتاب الموطأ²³.

القاضي مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي: المعروف بسعد الدين الحارثي نسبة إلى الحارثية من قرى بغداد، ولد عام 652هـ/1254م وكانت تنقلاته بين مصر وبلاد الشام، درس وولي القضاء بهما، وافته المنية سنة 711هـ/1311م²⁴.

القاضي علي بن مخلوف المالكي: قاضي قضاة الديار المصرية، ولد عام 634هـ/1236م اشتغل على مذهب مالك وبرع فيه وعمل أمين الحكم ثم استقر في القضاء سنة 685هـ/1286م، توفي سنة 718هـ/1318م وخلفه في القضاء تقي الدين الأخنائي المالكي، وكان قد ناب عنه الفقيه عيسى الزواوي على قضاء المالكية بمصر²⁵.

الإمام القاضي جمال الدين الزواوي المالكي: وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن سومر: نسبة لقرية سومر بتيزي وزو الجزائرية، ولد عام 630هـ/1233م، ورحل من زواوة سنة 645هـ/1247 إلى الديار المصرية التي درّس بها، ثم عين على قضاء المالكية بالشام ومكث في منصبه ثلاثة عقود، توفي سنة 719هـ/1319م، ونابه تلميذه عيسى بن مسعود الزواوي في قضاء دمشق مدة قيل أنها سنتان²⁶.

2.2.2. طلابه: لم تذكر المصادر الكثير عن طلبة الشيخ عيسى بن مسعود الزواوي وكل ما ذكر أنه درّس بجامع الأزهر أو بالزاوية المالكية بمصر، وأنه كان معيداً فيها قبل وفاته أو الجامع الأموي بدمشق، وكل ما ذكر -في حدود ما اطلعنا عليه طبعاً- هو إشارات متناثرة هنا وهناك عن بعض طلبة العلم عنده، وهم:

ابنه عمر الزواوي: تتلمذ على يد أبيه، ثم رحل إلى بلاد الشام طلباً للعلم، ترجم له الإمام الذهبي في كتابه المعجم المختص بالمحدثين بقوله "الفقيه العلامة الشاب الفاضل ولد عام 717هـ/1317م، رحل وأخذ العلم عن زينب بنت الكمال وعِدّة قرأ سنن أبي داود وغيرها، وأخذ عني الله يُسْعِدُهُ"، توفي سنة 737هـ/1337م وعمره 21 سنة²⁷.

عبد الله بن محمد بن سليمان المغربي ثم المصري: المشهور بالمنوفي، ولد في قرية من قرى مصر يقال لها سابور عام 686هـ/1287م وتلمذ على يد مجموعة من العلماء من بينهم شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي، ويعتبر من كبار شيوخ مصر، توفي في رمضان سنة 749هـ/1347م²⁸.

ابنه علي الزواوي ثم المصري: ولد بمصر سنة 713هـ/1313م وتفقّه على يد أبيه وأخذ عن برهان الدين السفاقي وغيره من العلماء، ثم دخل دمشق وسمع من علمائها ومنهم الإمام الذهبي وزينب بنت الكمال وغيرهما، تنازل له والده عن التدريس في الزاوية المالكية بمصر، مات سنة 769هـ/1368م²⁹.

محمد بن أحمد بن رزوق: لم أقف له على ترجمة وربما هو ابن مرزوق الخطيب وليس ابن رزوق، ذكره بدر الدين القرافي في كتابه توشيح الديباج أنه سمع من لفظ الفقيه شرف الدين الزواوي كثيرا من شروحاته لكتاب مسلم وكذلك بعض شرحه لكتاب ابن الحاج وبعض من كتاب الشامل في التاريخ والذي جمع فيه ما لم يجمعه غيره³⁰.

3.2. **التدريس وتولي القضاء:** تقلد الفقيه القاضي عيسى بن مسعود الزواوي مناصب عدة خلال تنقلاته من بجاية إلى حاضرتي مصر وبلاد الشام في التدريس والفتيا والقضاء، حيث درّس في الديار المصرية بجامع الأزهر الشريف، وكان يشغل الناس من خلال مجالسه العلمية ويشرح لهم كتب ومختصرات المالكية كالموطأ والمدونة ومختصر ابن الحاجب³¹، والتقى علماء السادة المالكية وانتفع بهم وأسدى لهم آراءه في المسائل والقضايا المختلفة، وكذلك تولى تدريس المنكوتريه بالقاهرة والإعادة بالناصرية والمدرسة الصالحية والمدرسة (الزاوية) المالكية وبقي على ذلك حتى سنة 732هـ/1332م عندما عزم على الحج³²، وتنازل لابنه علي عن التدريس وبقي معيدا في نفس الزاوية إلى أن وافته المنية، ودرّس أيضا ببلاد الشام في الجامع الأموي سنوات عدة أثناء إقامته بها ولعله انتفع الناس به في أماكن أخرى كنبلس التي زارها وتولى القضاء فيها³³، غير أن كتب التراجم لم تسجل ذلك؛ أما القضاء فلقد تقلده في مناطق مختلفة من حواضر العالم الإسلامي، فتولى منصب قضاء قابس بالمغرب الأدنى ثم قضاء الإسكندرية، وخلال رحلته لبلاد الشام ناب عن شيخ المالكية أبي عبد الله محمد بن سليمان بن سومر الزواوي القضاء سنوات عديدة ثم رجع لمصر وناب عن ابن مخلوف وتقي الدين الإخنائي في القضاء وعيّن قاضي قضائها إلى أن اعتزل وتفرغ للتدريس والتأليف والتصنيف³⁴.

عرف الزواوي بمواقفه الحازمة وشجاعته وقوله للحق تجاه كل ما يعتبره انحرافا عن جادة الصواب من الضلالات وما يفسد العقائد، فقد انتقد بشدة كتابات محيي الدين، فهو أحد الذين أمروا بإحراق كتبه، ومعاقبة من يروج لها، بسبب انحراف عقائد ابن عربي،

يقول برهان الدين البقاعي في كتابه: "ومن صنع ذلك من العلماء المعتبرين: الشيخ السبكي، والعلامة القاضي شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي المالكي شارح صحيح مسلم³⁵.

وفي حدث ثاني يتعلق بدخول الإمام تقي الدين بن تيمية السجن في مصر وكان القاضي ابن مخلوف هو من حكم بسجنه وذلك سنة 705هـ/1306م وبعد خروجه من السجن طلب إعادة محاكمته من جديد، ولم يحضر ابن مخلوف ومثل القضاء المالكي كل من شمس الدين التونسي وشرف الدين عيسى الزواوي، وطلب من القضاة أن يحكموا بحبسه لأن المصلحة تقتضي ذلك، طلب من التونسي أن يحكم بهذا فقال: "ما ثبت عليه شيء"، ثم طلب هذا من الزواوي فتوقف، فقال ابن تيمية: "أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة"، فقال الزواوي: "يكون في موضع يصلح لمثله" وبناءً على كلام الزواوي أرسل ابن تيمية إلى حبس القضاة وأذن بأن يكون عنده من يخدمه، وكان ذلك في شوال 707هـ/1308م³⁶.

3. إنتاجه العلمي

انبرى الزواوي للتأليف والتصنيف في علم الحديث والفقه والتاريخ، وهو وجهد يضاف لمهامه الأخرى في الفتيا والتدريس وتولي القضاء، سجلت لنا كتب التراجم العديد من المؤلفات والشروحات المنسوبة له في الميادين المذكورة آنفاً، والتي أثرت المكتبة الإسلامية نعدّد منها:

- شرح صحيح مسلم³⁷: في اثني عشر (12) مجلداً، وسماه "إكمال الإكمال" جمع فيه بين المعلم في شرح صحيح مسلم للمازري، وإكمال المعلم للقاضي عياض، وشرح النووي عن مسلم، وزاد فيه فوائد ومسائل من كلام الباجي في المنتقى وابن عبد البر في كتابيه التمهيد والاستذكار، وأبدى فيه سؤالات مفيدة وأجوبة عنها؛ ويقول عنه السخاوي: ابتداه من المبتدأ فكتب منه عشرة (10) أسفار³⁸؛ مخطوط الكتاب بأجزائه الاثني عشر

(12) مفقود ما عدا الجزء السابع فهو موجود في مصر بالمكتبة الأزهرية تحت رقم: (30241)، ونسخة أخرى موجودة في مكتبة الحرم المكي بالمملكة العربية السعودية، وقد نشرته شبكة الألوكة في نسخة إلكترونية³⁹.

— **شرح مختصر ابن الحاجب**⁴⁰: وهو كتاب في الفقه المالكي في سبعة (07) مجلدات، وصل فيه الزواوي لكتاب الصيد، الكتاب موجود كمخطوطة في المكتبة الخديوية المحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (48)، كل أجزاءه موجودة عدا الأول والرابع⁴¹.

— **مناقب الإمام مالك بن أنس**⁴²: مخطوط الكتاب موجود في مكتبة البلدية بالإسكندرية، وهو مطبوع ومحقق من طرف الدكتور الطاهر محمد الدرديري، نشرته مكتبة طيبة للنشر والتوزيع بالمدينة المنورة سنة 1411هـ/1991م.⁴³

— **مختصر الجامع**⁴⁴: وهو اختصار لكتاب الجامع لمسائل المدونة والنوادر والمسمى "مصحف المذهب المالكي" لأبي بن يونس الصقلي، مجموع في ستة (06) أجزاء.

— **الشامل في التاريخ**⁴⁵: صنع منه نحو عشرة (10) مجلدات، بيّض منه نصفه، ذكر فيه من أول بدء الدنيا وقصص الأنبياء وأخبار الأمم من آدم إلى زمانه، تفرد بذكر عنوانه بدر الدين القرافي وقد نقل عن أحد تلاميذ الزواوي أنه جمع فيه ما لم يجمعه أحد من قبله، وأكثر المترجمين يذكرون له كتابا كبيرا في التاريخ.⁴⁶

وتفرد الحافظ جلال الدين السيوطي في ذكر أن للفقهاء الزواوي شرح للمدونة⁴⁷ ولعله يقصد بها كتاب الجامع لمسائل المدونة لأبي يونس الصقلي سالف الذكر؛ وصنف أيضا كتاب المناسك، وآخر في الوثائق، ورسالة في الطلاق، رد فيها على تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق الثلاث⁴⁸.

4. مكانته بين النخب العلمية

سطع نجم العلامة عيسى بن مسعود الزواوي المالكي في بلاد المشرق نظير جهوده وإسهاماته في خدمة العلم وأهله وبلغ مكانة بارزة بين أقرانه ووصف بالزعامة والرئاسة في

المذهب المالكي فقهاً وقضاً، وبأنه العالم العلامة المتفنن المتبحر لعمق علمه وسعة اطلاعه، وأنه الحافظ الذي شُبه بمالك الصغير لحفظه، وأشاد به العديد من العلماء الذين عاصروه ومن الذين جاؤوا بعده نذكر أقوالهم على النحو التالي:

- أشاد به ابن فرحون في ديباجته قائلاً: كان فقيها عالماً متفنناً في العلوم... وكانت له اليد طولاً في علم الفقه والأصول و العربية والفرائض، ويُحكى أنه حفظ مختصر بن الحاجب في الفروع في مده ثلاثة أشهر ونصف ثم عرضه وحفظ موطأ الإمام مالك بن أنس وعرضه...، وكان إماماً في الفقه وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية⁴⁹.
- أنصفه ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة بقوله: "فاق الأقران"⁵⁰ في المذهب المالكي وذلك لنبوغه وغزارة علمه.
- أثنى عليه جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة بقوله: "كان فقيهاً عالماً متفنناً، انتفع به الناس"⁵¹.
- يقول الصفدي في حقه: "شرف الدين الزواوي الفقيه المالكي، انتهت إليه معرفة مذهب مالك رضي الله عنه بالديار المصرية وكانت له معرفة بالفرائض والحساب ومعرفة البلاد والإقليم ويحفظ جملة من أشعار العرب... وكان فيه ود لأصحابه"⁵².
- نوه بدر الدين القزافي لمقامه العلي بقوله: "العالم المفتي أحد الصدور الأعلام وحفاظ علماء الإسلام، شرف الدين، أبو مهدي، إمام المالكية وزعيمهم بالديار المصرية، يدعى بمالك الصغير لحفظه"⁵³.
- امتدحه الأستاذ محمد مخلوف في شجرة النور الزكية حين قال: "الفقيه الإمام المتفنن في كثير من العلوم العمدة المتقن الأملعي الذكي"⁵⁴.

يستحق العلامة الجزائري عيسى بن مسعود الزواوي هذه الإشادة ممن عايشوه وعرفوا قدره وجهده لأنه بحق من العلماء الأجلاء الذين تزخر وتفخر بهم منطقة الزاوة، والذي

علا كعبه في حواضر المشرق بعد مسيرة علمية حافلة تنقل فيها بين أقطاب العالم الإسلامي بجاية، القاهرة، دمشق، درس ودرّس وناظر وتولى فيها القضاء المالكي، ما أبرز مكانته في أواسط النخب العلمية خلال القرنين 07-08هـ/13-14م.

5. وفاته

أجمعت جل المصادر التي ترجمت للعلامة الفقيه القاضي عيسى بن مسعود الزواوي أن وفاته ليلة الخميس مستهل شهر رجب سنة 743هـ⁵⁵، غير أن الصفدي أخبر بأنه حصل له بلغم فمنعه من الحركة، وتوفي بسببه سنة 744هـ وتبعه في ذلك ابن رافع السّلامي في وفاته⁵⁶، وذكر أبو العباس الونشريسي في كتابه الوفيات أنها كانت سنة 745هـ⁵⁷، والأرجح أنها سنة 743هـ/1442م، ودفن رحمه الله بالقرافة بالقاهرة عن عمر قارب الثمانين (80) سنة، تاركا خلفه إرثا علميا كبيرا ومؤلفات قيّمة في الحديث والفقه والتاريخ.

● خاتمة

أسهم العلامة الجزائري عيسى بن مسعود الزواوي في خدمة المذهب المالكي ومختلف العلوم الأخرى، من خلال رحلاته وتنقلاته بين العواصم الكبرى للعالم الإسلامي، تولى خلالها مسؤوليات كبيرة عبرت عن حضوته بين علماء زمانه، فلقد تقلد كرسي التدريس بالأزهر الشريف وفي نابلس والجامع الأموي بدمشق، وتصدر للإفتاء والحكم بين الناس بتولي القضاء مرات عدة في قابس ومصر وبلاد الشام؛ هذه الحركة المتواصلة والعمل الدؤوب يبين نبوغ الزواوي وحرصه واجتهاده على نشر العلم، ويظهر ذلك جليا من مؤلفاته التي عبرت عن موسوعيته وفهمه لمتطلبات عصره.

- للزواوي الكثير من المخطوطات في الخزائن العلمية والمكتبات المصرية، بات من الضروري العمل عليها وتحقيقها على يد ثلة من النخبة الجزائرية في إطار عمل أكاديمي، حتى نحفظ إرث هذا العالم الجليل ونسهم في إبراز مكانته بين علماء الجزائر الذين تكبدوا

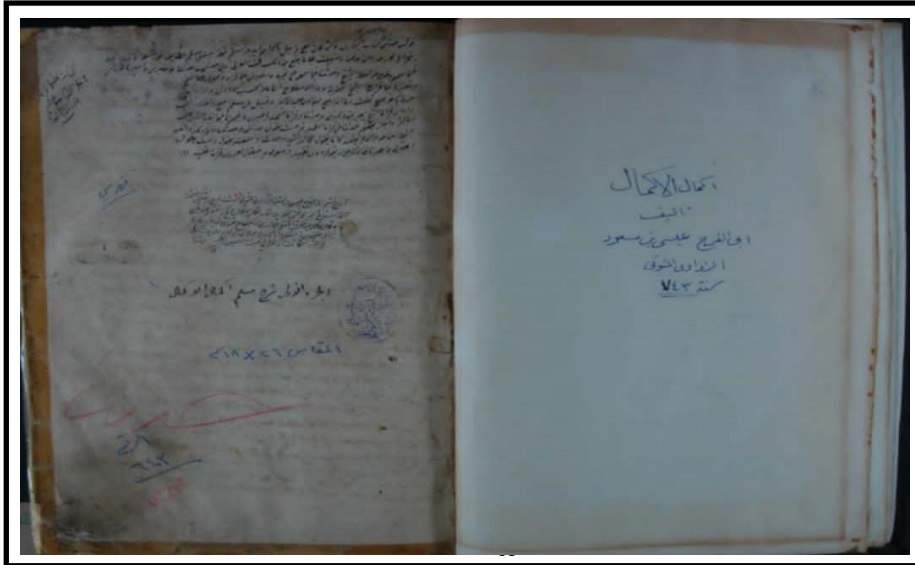
المتاعب والمشاق خدمةً للعلم وارتفاعاً للناس، ولا بد من فتح الباب أمام دراسات معمقة حول هذه الشخصية وغيرها من الشخصيات كشخصية ابن سومر مثلاً الذي تتلمذ على يده كبار علماء المشرق، كابن كثير والذهبي.

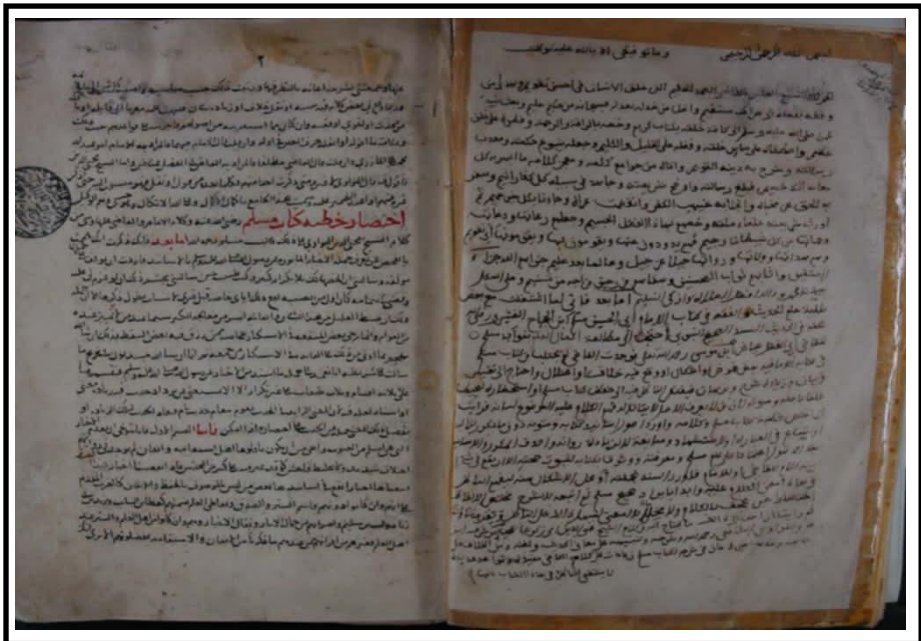
– بالتأريخ لهؤلاء نحفظ الهوية والمرجعية الوطنية التي تحددها الكثير من المخاطر، فمنطقة زواوة مثلاً كغيرها من مناطق البلاد خرجت كبار العلماء الذين ساهموا في صنوف العلوم العقلية والنقلية، وحاضرة بجاية كانت المنارة العلمية التي تشد إليها الرحال من أوروبا والأندلس طلباً للعلم على يد علمائها الفطاحل.

– ستحفظ الأجيال سير العلماء فهم مصاييح الدجى أناروا الطريق بعلمهم الغزير وحكمهم الوازنة.

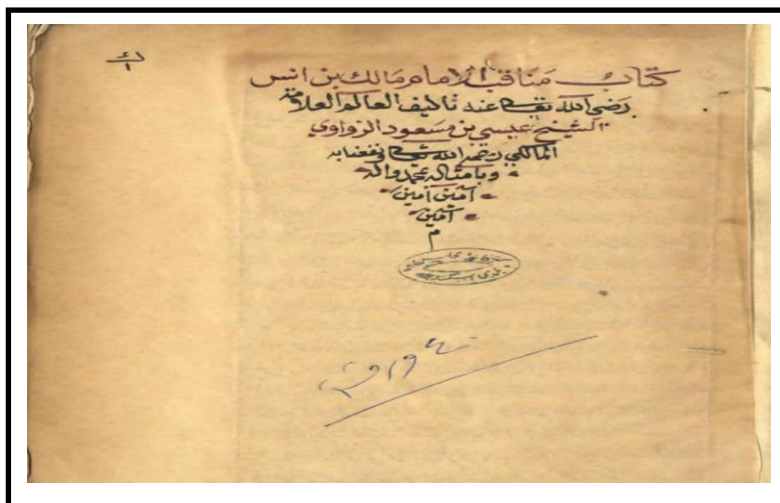
● ملاحق

الملحق رقم 5801: يوضح الورقة الأولى والثانية من مخطوط إكمال الإكمال للفقهاء الزواوي





الملحق رقم (02)⁵⁹: يوضح الورقة الأولى والثانية من مخطوط مناقب الإمام مالك للفيق الزواوي



الورقة الأولى



الإحالات والتهميش

¹ حكمت دولة المماليك مصر وبلاد الشام والحجاز في الفترة ما بين 648هـ - 1250م/ 923هـ - 1517م. بعد سقوط الدولة الأيوبية، وحكامها من المماليك الذين جلبوا من مناطق القوقاز وآسيا الوسطى، ثم ترقوا في المناصب العسكرية حتى تولوا الحكم. للمزيد ينظر لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بن بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1357هـ-1938م، ج 7، ص 3 وما بعدها؛ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، كلية الآداب جامعة القاهرة، مصر، ج 1، ص 756 وما بعدها.

² زاوة: تقع بناوحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة في سفوح جبال جرجرة -أي منطقة تيز وزو الحالية- أما النسب فيرجعها ابن خلدون إلى قبيلة كتامة، للمزيد ينظر لعبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: خليل شحادة، سهل زكارة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000م، ج 6، ص 171.

- ³ محمد سهيل طقوش، تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1418هـ-1997م ط1، ص 109.
- ⁴ هو ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري، رابع ملوك الدولة المملوكية وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة، وهو من أصل تركي ولد بصحراء القبجاق سنة 620هـ/1223م، قاد معارك عديدة ضد الصليبيين والمغول وتوفي سنة 676هـ/1277م بدمشق. للمزيد ينظر ابن تغري، المصدر السابق، ج7، ص 94 وما بعدها؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1963م، ص42.
- ⁵ أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، مصر، 1933هـ-1915م، ج5، ص127.
- ⁶ طقوش، المرجع السابق، ص 110.
- ⁷ ابن خلدون، المصدر السابق، ج5، ص 544.
- ⁸ أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 86؛ عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة الإسكندرية وحضرتها في العصر الاسلامي، دار المعارف، 1961م، ط1، ص 50، 51.
- ⁹ عبد العزيز سالم، نفسه، ص 57، 58.
- ¹⁰ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 497.
- ¹¹ نفسه، ج7، ص 648.
- ¹² سامية مصطفى مسعد، المغاربة ودورهم الثقافي في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2002م، ط1، ص 23، 24.
- ¹³ ابن تغري، المصدر السابق، ج6، ص 54 وما بعدها؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 695.
- ¹⁴ ابن خلدون، نفسه، ج1، ص 548، 549.
- ¹⁵ زاد صاحب الديباج في ذكر نسبه بقوله "بن يوينو المنكلافي الحميري"، ينظر لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ-2003م، ج2، ط1، ص 67.
- ¹⁶ المصادر التي ترجمت له: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجبل، بيروت، 1414هـ-1993م، ج3، ص 210، 211؛ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1387هـ-1967م، ج1، ط1، ص 459، 460؛ ابن فرحون، المصدر السابق، ص 67، 68؛ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا،

- 1418، 1998، ج3، ط1، ص727؛ محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ج1، ص519، 520؛ تقي الدين أبي المعالي محمد ابن رافع السلامي، الوفيات، تح: صالح مهدي عباس، بشار عودة معروف، مؤسسه الرسالة، بيروت، 1402هـ-1982م، ج1، ط1، ص463؛ بدر الدين بن محمد بن يحيى بن عمر القرطبي، توشيح الديباج وحلية الانتهاج، تح: علي عمر، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، 1425هـ-2004م، ط1، ص151؛
- يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ج1، ط1، ص291؛ مجموعته من الأساتذة، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، تقى: محمد الأمين بلغيث، منشورات الحضارة، بئر التوتة، الجزائر، 2014م، ج2، ص104، 105؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحالي، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م، ط2، ص163؛ خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002م، ج5، ط15، ص109؛ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ/1930م، ج1، ط1، ص219.
- ¹⁷ في بلدية عين الحمام، ولاية تيزو وزو، منطقة زواوة.
- ¹⁸ ابن فرحون، الديباج، ص67؛ الصفدي، أعيان العصر، ص727.
- ¹⁹ ابن فرحون، نفسه؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ص211؛ القرطبي، توشيح الديباج، ص151؛ أحمد بن يحيى النونشريسي، وفيات النونشريسي، تح: محمد بن يوسف القاضي، نواغ الفكر، مصر، 2009م، ص37.
- ²⁰ الصفدي، أعيان العصر، ص727.
- ²¹ أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابع بجاية، تح: عادل نويهض، دار الأفاق الجديد، بيروت، 1979م، ط2، ص265
- ²² عبد الحكيم بن محمد أرزقي بالمهدي، جهود علماء الجزائر في خدمة مختصر ابن الحاجب الفقهي - شرح الزواوي نموذجاً - مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، م2، ع37، ص418.
- ²³ الزركلي، الأعلام، ج4، ص161.
- ²⁴ بالمهدي، المرجع السابق، ص419.
- ²⁵ الصفدي، أعيان العصر، ص543، 544.
- ²⁶ ابن فرحون، الديباج، ص320.
- ²⁷ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، تح: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف السعودية، 1408هـ-1988م، ط1، ص184.
- ²⁸ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص312، 313.
- ²⁹ العسقلاني، الدرر الكامنة، ص93.

- 30 القرافي، توشيح الديباج، ص 151.
- 31 ابن رافع، الوفيات، ص 463؛ ابن فرحون، الديباج، ص 67؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ص 211؛ مجموعه من الأساتذة، المرجع السابق، ص 105.
- 32 العسقلاني، الدرر الكامنة، ص 211؛ الصفدي، أعيان العصر، ص 544.
- 33 نفسه؛ مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 219.
- 34 نفسه؛ ابن فرحون، الديباج، ص 67.
- 35 بالمهدي، المرجع السابق، 417.
- 36 محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991م، 58.
- 37 أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري، المعلم بفوائد مسلم، تح: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ج 1، ط 2، ص 205، ينظر أيضا لكل الكتب المذكورة سالفا والتي ترجمت للزواوي.
- 38 شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التَّوْبِيخ، تح: السالم بن غتر بن سالم الظفيري دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1438هـ- 2017م، ط 1، ص 484.
- 39 ينظر للملحق رقم (01).
- 40 الونشريسي، الوفيات، ص 37.
- 41 بالمهدي، المرجع السابق، 421.
- 42 ابن فرحون، الديباج، ص 67، 68.
- 43 ينظر للملحق رقم (02).
- 44 العسقلاني، الدرر الكامنة، ص 211.
- 45 ابن فرحون، الديباج، ص 68.
- 46 القرافي، توشيح الديباج، ص 151؛ بالمهدي، المرجع السابق، 420.
- 47 السيوطي، حسن المحاضرة، ص 460.
- 48 مجموعه من الأساتذة، المرجع السابق، ص 105.
- 49 ابن فرحون، الديباج، ص 67، 68.
- 50 العسقلاني، الدرر الكامنة، ص 211.
- 51 السيوطي، حسن المحاضرة، ص 459.
- 52 الصفدي، أعيان العصر، ص 727، 728.
- 53 القرافي، توشيح الديباج، ص 151.
- 54 مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 219.

⁵⁵ جل الكتب التي ترجمت له تذكر هذا التاريخ.

⁵⁶ الصفدي، أعيان العصر، ص728؛ ابن رافع، الوفيات، ص463.

⁵⁷ الونشريسي، الوفيات، ص37.

⁵⁸ نسخة من المخطوط بصيغة إلكترونية، مكتبة الحرم المكي، شبكة الألوكة، 2018/12/06.

⁵⁹ نسخة من المخطوط بصيغة إلكترونية، مكتبة البلدية بالإسكندرية، شبكة الألوكة، 2018/02/25.